

﴿ القوى العاقلة في الحيوان ﴾

لحضره الاب الفاضل الحوري قسطنطين الباشا (ب م)

(تابع لما في الجزء السابق)

اما البهيمة فليس لها علم ولا صناعة الا ما دفعها اليه الطبع من اول امرها ولا تزيد عليه بتقديم او نجاح لانها تولد عارفة بكل ما تحتاج اليه وقادرة عليه فلا تحتاج الى مرب ولا معلم فانها تسمى حالاً في طلب الرزق ولا تخطئ الحكمة فطرت عليها فلا تزيد عليها مهما طال الزمان . ولا ريب ان هذا العجز ناشئ عن عدم اقتدارها على التقليد العقلي او التمثيل لانها لا تدرك من المحسوسات الا ما اثر فيها اي لا تدرك من المراتبات الا ما اثر في بصرها ومن المسموعات الا ما اثر في سمعها فلا تدرك منها سراً خفياً ولا معنى كلياً فان الانواع الداجنة قريبة الى الانسان تسمع كلامه وترى اعماله من قبل زمن التاريخ ولم تتعلم منه شيئاً واذا حاول ان يعلمها غلبته غريزتها ولم يؤثر فيها علم ولا تربية لانها ليست اهلاً لذلك وان اثر فيها فانما يؤثر في افعالها بالشدة عليها من خارج لا بالطبع من داخل ويصلحها كما يصلح اغصان الشجر وحينئذ فيكون الفضل له لا لها ولذلك اذا تركها عادت الى اصلها ورجعت الى طبعها كما ترجع القوس الى حالها اذا ارتخى الوتر الذي يشدها وهو دليل ظاهر على ان المبدأ الفاعل فيها خارج عنها

والنتيجة ان الافعال التي تأتينا البهيمة عن معرفة جزئية محسوسة كما تقدم لا تفعلها عن تعقل وروية اذ لا تدرك نتيجتها اي لا تدرك العلاقة اللازمة بين فعلها وما يأتي عنه لان ذلك امرٌ معنوي لا تأثير له في الحواس

وليس لها قوة تدرك بها غيرها ولذلك تؤثر فيها الظواهر لا الحقائق والحكمة التي تبدو فيها ليست منها ولا تنسب اليها بل الى من وضعها فيها فالبهيمة اذا محصورة في دائرة جزئية لا تخرج منها ابداً

واما الافعال الادبية فلا ريب ان الدين والآداب امران متلازمان في الانسان لا يفترقان لان من اول وجدانياته عرفانه نفسه بكونه موجوداً فاول ما ينتقل اليه ذهنه ان له خالقاً ابدعه واذ كان يدرك العالم المنظور بحواسه فلا يتردد في ادراك وجود علة له ويستدل بعقله على صفاته اللازمة من القدرة والحكمة والكمال بالذات والافعال والصلاح والعدل وما شاكل ويدرك من ثم انه رسم ضعيف من حقيقة وجوده او شرارة من نور كماله وانه يجب عليه ان يتقرب اليه بعمل الخير والسمي فيه وان لا بد من المسألة والحساب وعقاب من يستوجب العقاب والجزاء بالخير لمن يقصد الخير وغير ذلك من المبادئ الدينية الكلية . ولا ينكر ان هذه المبادئ ليست واحدة في وضوحها لدى كل انسان الا انها لا يخلو الانسان منها بالاطلاق مهما كان جاهلاً منحطاً فلي هذه المبادئ الراسخة في نفسه الواضحة لعقله نشأت آداب الظاهرة وشرائعه الاجتماعية التي هي عبارة عن حقوقه وواجباته وبناء على ذلك يكون الانسان ديناً باطناً وان كفر ظاهراً واديباً طبعاً وان فسد عملاً

اما البهيمة فاذا ليس لها قوة مفكرة فلا تقصد في اعمالها غاية ولا تفقه معنى امر ولا نهى وليست حرة في اعمالها لتتصرف فيها فالشرعية كلها لها لا عليها فهي لا تطلب حقاً ولا تقوم بواجب ادبي اي لا شرعية عندها الا

الغريزة التي رُكبت فيها وفُطرت عليها فان المحبة الوالدية والغريزة الاجتماعية والمحبة الجنسية لا تخرج فيها عن كونها غريزة يدفع اليها الطبع كالالفة الكيميائية لا تأتيا عن قصد وتعقل اذ ليس عندها مبادئ كلية ادبية تقيس عليها ولا لها قوة عقلية تنصرف فيها لترعى واجباً او ذمةً فهل يُظن ان الفرس يقصد التأديب اذا رفس وان الوحش يقوم بالواجب عليه اذا افترس وان اناث النحل تجاهد في سبيل الله اذا قتلت ذكورها او تقصد الصيانة والتعفف. هذا ولا ينكر ان الانسان كثيراً ما يزيد في اعماله فساداً على اعمال الحيوان ومع ذلك لا يزال له ضمير يحكم على فسادِه فهو ابدأ يامر بالخير ويسر بفعله وينهى عن القبيح ويندم على عمله كما انه اذا اخطأ عرف خطاهُ وغلطه وعاد الى صوابه حكماً او عملاً

والنتيجة ان المبدأ العاقل في الانسان يختلف كل الاختلاف عن المبدأ الحساس بدليل الوجدان وادراك الكليات الاولى وفعل التجريد والحرية مما لاحظ فيه للبهيمة مطلقاً ولا دليل ظاهر على تعاقبها في لغتها لالفاظاً ولا معنى ولا في اعمالها بتقدم او نجاح ولا بعلم ولا صناعة ولا شريعة ولا آداب اذ لم تخرج عن حد الطبع الذي رُكب فيها بقوة اقوى من الحديد فلا يقدر ان يخرجها الانسان عنه بعقله ولا يؤثر فيها ادب المؤدب ولا تعليم المعلم مع ان الانسان لم يزل يعتني بتربيتها من قديم الزمان فالبناء لم يتعلم منه معنى الكلام ولا تعلم منه الكلب الصيد ولا الثور فن الزراعة ولن يزال الحمار حملاً بطبعه صابراً على ذله والاسد وحشاً ضارياً لا يتمدن ولا يأنس الى ماشاء الله